العمل الإبداعي في الدراسات الحديثية بسبتة وأثره في المشرق

المكي أقلاينة

المقدمة

إن البحث في المجال الحديثي له أهمية لا ينكرها أحد لارتباطه بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والعلوم التي انبثقت عنه خادمة له، لأجل ذلك كان حرص المسلمين على التدقيق فيه بالبحث عن رواته عدالة وضبطا ومن حيث اتصال السند والخلو من الشذوذ والعلة، وجمع كل ذلك في مصنفات لها أهمية قصوى في المحافظة على سنة أبي القاسم صلى الله عليه وسلم.

ولم يقف الأمر عند حدود ذلك، بل نجد العلماء يهتمون برواية هذه الكتب لمن بعدهم بالأسانيد حتى لا يدعي أحد نسبة كتاب لغير صاحبه، مبيّنين طرق تحملهم لها، وهذا من شأنه صيانة المكتوب من الضياع والتحريف.

وقد كان للمشارقة فضل السبق في كثير من المواطن في مجال الدراسات الحديثية لا يمكن لأحد أن ينكره، إلا أنه مما ينبغي علينا التساؤل حوله هو: هل كان للسبتيين قدم في هذا المجال؟ بمعنى هل كانت لهم إسهامات تذكر في الدراسات الحديثية؟ وإذا كانت لهم إسهامات، فهل لهم نوع تميز في عطاءاتهم العلمية؟ أم كانوا مجرد نقلة لما قدمه غيرهم؟ وإذا كان لهم تميز، فهل كان لإنتاجهم العلمي أثر في غيرهم من علماء المشرق؟

تلكم جملة من التساؤلات تحتاج منا إلى وقفات لتسليط الضوء على هذا الموضوع، لعلي أتمكن بحول الله وقوته من استجلاء ملامحه، وتقديمه للقراء، علما أن ما سيقدم أعده بداية الطريق في سبيل التطوير، وأن ما سيذكر في هذا البحث إن هو إلا ملامح يستضاء بها، يمكن تعميق دراستها بإذن الله.

بناء على ما سبق، سيكون موضوعي في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، وبالله التوفيق والهداية.

المبحث الأول: الدرس الحديثي بسبتة العالمة

سبتة، تلكم المدينة القابعة على الركن الأيمن من أقصى الجانب الأيسر للمغرب، تلكم المدينة التي تأخر دخول الإسلام إليها. وقد عرفت بكونها مركزا علميا وحضاريا، فالناظر إلى تاريخها يجد أنه كان بها مساجد ومدارس وخزانات علمية (مكتبات) منها:

١- ألف مسجد، أعظمها وأشرفها: المسجد الجامع العتيق، "بلاطاته اثنان وعشرون بلاطا، وبقبلته شماسات من الزجاج الملوّن بصناعات شتى معقودة بالرصاص، والقنوات الفاصلة بين البلاطات ومجاري القسائم والميازيب من الرصاص كذلك، اثنتا عشرة درجة، صنع في شعبان المكرم سنة ٤٠٨هـ، وتميز على سائر جوامع بلاد المغرب كلها بالبلاط الأوسط الضخم البناء، المرتفع السمك، وبالمقصورة الهائلة الغريبة الشكل، كان صنعها في رجب الفرد عام ٤٢٨هـ، وبه صحنان: أحد الصحنين أكبر من الآخر، وبكل واحد منهما جبان اثنان، وصومعته قديمة من بناء الأول..."[١]. ويأتي بعده في الكبر مسجد مقبرة زكلو، من بناء الفقيه محمد العزفي[٢].

٢- مدرستان: الأولى: "مدرسة الشيخ المحدث الراوية المعتني بالعلم وأهله، المنفق ماله في نشره واقتناء كتبه، أعجوبة زمانه في ذلك ووقته: علي الشاري الغافقي السبتي... ابتناها من ماله"، والثانية: "المدرسة الجديدة العظيمة البناء، المتسعة الزوايا، ذات الصنائع العجيبة، وأعمدة الرخام، وألواحه المتعددة الغالية الثمن التي ابتناها السلطان أبو الحسن..."[٣].

٣- الخزانات العلمية: كان بسبتة في القديم كما جاء على لسان محمد بن القاسم الأنصاري السبتي اثنتان وستون خزانة، منها ما يوجد بدور أكابر البلد، عددها خمس وأربعون خزانة، كخزانة بني العجوز، وخزانة الفقيه محمد بن عبدالله الأموي، وخزانة الفقيه أحمد العزفي اللخمي. وفي زمانه سبع عشرة خزانة: تسع بدور الفقهاء والصدور، كبني القاضي الحضرمي، وخزانة بني ابن أبي حجة، وثمان خزانات وقف على طلاب العلم، أقدمها خزانة شهيرة للشيخ علي الشاري، وهي أول خزانة وقفت بالمغرب على أهل

١- محمد بن القاسم السبتي الأنصاري، **اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار**، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، طبع في الرباط، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ٢٨-٢٩.

٢- المرجع السابق، ص ٣٠.

٣- المرجع السابق، ص ٢٨-٢٩.

العلم، وفي حجم هذه الكتب التي وقفها الشاري، قال المقري: "... ووقف بها كتبا عظيمة"[٤]، "وأعظمها: إحدى خزانتي الجامع العتيق الكائنة بشرقي صحنه، وبإزاء باب الشواشين أحد أبوابه وكانت في الكثرة بحيث لم يشذ منها فن من الفنون ولا نوع من المعارف أصلا، مع تعدد مصنفات ذلك الفن وكثرة دواوينه"، أما بقية الخزانات، فبعضها يوجد بالمدرسة الجديدة، ففيها خزانتان، وواحدة بمسجد القفال، وأخرى بمسجد مقبرة زكلو، وأخرى بجامع الربض الأسفل[٥].

وقد كان يرتاد المساجد والمكتبات والمدارس علماء من سبتة ووافدون عليها سواء من المغرب أو الأندلس أو المشرق، خصوصا وأن سبتة تعد مدينة عبور للجميع، فمن أراد الحج من الأندلسيين يمر بسبتة، ومن أراد الأندلس من المشارقة والمغاربة فإنه يمر بها، فتعددت بذلك المناسبات لتلاقي العلماء، وتبادل العلم فيما بينهم، وتدريسه للطلاب، فكانت سبتة بهذا موطن التلاقح العلمي، فلا عجب أن يظهر فيها علماء أفذاذ يشهد لهم التاريخ بعطائهم المتميز الذي استفاد من خبرات جهات متعددة.

ولم تكن سبتة موقع عبور فقط، إذ نجد من يأتي إليها خصيصا للتجارة أو للاستقرار بها، فنجد التاجر العالم، وكذا العالم الذي فضل الإقامة بها لجملة من الأسباب، فكان ذلك سببا في تعدد الكراسي العلمية حيث كان العلماء يقدمون علمهم للطلاب في المدارس والمساجد والأماكن الخاصة، يهمنا منها هنا ما يتعلق بالجانب الحديثي.

ففي مجال الدراسات الحديثية، نجد جملة من العلماء من سبتة أو الوافدين عليها عبورا أو إقامة ممن أثروا هذا العلم في هذا البلد، منهم:

محمد بن عبد الله الأموي السبتي المعروف بابن الشيخ (ت٤٠٠هـ)، محدث سبتة في وقته[٦]. وأبو بكر بن عيسى المعروف بابن زوبع السبتي (ت٤٠٢هـ)[٧]، وهو من شيوخ سبتة ومحدثيها وقضاتها. وعبدالله بن محمد بن عبدالله بن محمد النفزي أبو محمد المعروف بالمرسي، سكن سبتة وخطب بجامعها

٤- شهاب الدين أحمد التلمساني المقري، **أزهار الرياض في أخبار عياض**، تحقيق: مصطفى السقا وجماعة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٩م، ج ١، ص ٣٦.

٥- الأنصاري، **اختصار الأخبار**، ص ٢٩- ٣٠.

٦- أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال، **الصلة في تاريخ علماء الأندلس**، تحقيق: عزت الحسيني العطار، مكتبة الخانجي، ط٢، ١٤١٤هـ، ج ٢، ص ٥٩٤.

٧- القاضي عياض، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، تحقيق: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ج ٧، ص ١١١.

مدة، وسمع بها من أبي علي الصدفي **جامع الترمذي** بقراءته، و**الشمائل** له، و**أدب الصحبة** للسلمي، وغير ذلك بتاريخ أول سنة ٤٩٠هـ، كما سمع **صحيح البخاري** على أبي محمد بن الماموني بقراءة أبي القاسم بن العجوز سنة ٤٨٠ هـ، و**مشكل الحديث** لابن فورك[٨]. وإبراهيم بن جعفر بن أحمد اللواتي المعروف بابن الفاسي (ت٥١٣هـ)، من أهل سبتة، ذكر ابن الأبار أنه "لازم الناس سماعه بالجامع ليلا ونهارا، وكانوا يبيتون بالمقصورة حتى كمل في مدة يسيرة لفرط استعجاله"[٩].

وأبو علي الصدفي المعروف بابن سكرة، المشهور بعنايته بالحديث ورحلته إلى المشرق ولقائه الشيوخ، بلغ عددهم حسب ما جمعه القاضي عياض نحوا من مائتي شيخ، دخل سبتة مرتين، فأخذ عنه جماعة من الشيوخ بها[١٠]، وكان مما حدث به عند دخوله إليها عائدا من المشرق: **جامع الترمذي**[١١].

والفقيه أبو عبدالله محمد بن عيسى بن حسين التميمي، نزيل سبتة، المعروف بابن الدقاق (ت٥٠٥هـ)، أجل شيوخ سبتة، ومقدم فقهائها، لازمه القاضي عياض كثيرًا للمناظرة في **المدونة** و**الموطأ** وسماع **المصنفات**، وقرأ وسمع بقراءة غيره كثيرا وأجازه جميع رواياته. مما سمع منه: **الموطأ**، و**صحيح البخاري** و**صحيح مسلم** و**شرح غريب الحديث** لأبي عبيد القاسم بن سلام وكتاب **إصلاح الغلط** على أبي عبيد لأبي محمد بن قتيبة وكتاب **غريب الحديث** للخطابي وكتاب **علوم الحديث** للحاكم النيسابوري وكتاب **الطبقات** لمسلم بن الحجاج وكتاب **الضعفاء والمتروكين** للنسائي، وكتاب **التقصي لمسند الموطأ** لابن عبدالبر و**مسند الموطأ** لأبي القاسم الجوهري[١٢].

والفقيه الراوية أبو عمران موسى بن عبدالرحمن بن أبي تليد الشاطبي (ت٥١٧هـ) شيخ بلده حدّث بسبتة، فكان مما أخذه عنه القاضي عياض: **التقصي** لابن عبدالبر، مما قرئ عليه وهو حاضر، وناوله كتاب **الصحابة** له أيضًا، وكتب له إجازة بجميع رواياته، منها جميع تواليف ابن عبدالبر[١٣]. والشيخ

٨- القاضي عياض، **الغنية**، تحقيق: ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٢م، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي بن الأبار، **معجم أبي علي الصدفي**، عناية: فرانسيسكو كوديرا الزايدين، مجريط، مطبعة روخس، ١٩٨٥م، ص ٢١٤-٢١٧.

٩- ابن الأبار، **معجم أبي علي الصدفي**، ص ٥٤، تر ٣٩.

١٠- القاضي عياض، **الغنية**، ص ١٣٠، تر ٤٧.

١١- ابن الأبار، **معجم أبي علي الصدفي**، ص ٩٦، تر ٨٢.

١٢- القاضي عياض، **الغنية**، ص ٢٧، تر ١.

١٣- المرجع السابق، ص ١٩٥، تر ٨٥.

أبو الأصبغ عيسى بن محمد بن عبدالله بن عيسى بن موئل بن أبي البحر الزهراني (ت٥٣٠هـ)، وهو شيخ مسن، لقيه القاضي عياض بسبتة مرارا، أصله من شنترين، وسكن سلا، له سماع قديم بالمشرق من كريمة بنت أحمد لكتاب **البخاري**. ناول القاضي عياض كتاب **التعديل والتجريح** للقاضي أبي الوليد الباجي، وكتاب **التسديد**(١٤).

وقد اعتنى السبتيون بالإجازات والإرسال في طلبها من العلماء المشهورين سواء بالأندلس أم المغرب أم المشرق، فتمكنوا بذلك من ربط الصلة بين هذه الأقطار، وجمع العلم من ينابيعه. ولما اضطر الأندلسيون إلى مغادرة بلدهم وجدوا المرتع الخصب فيها، فلذّ لهم المقام، وكان ذلك سببا لمزيد من العطاء والتلاقح الفكري.

ونشط الدرس الحديثي في سبتة مع القاضي عياض السبتي (ت٥٤٤هـ)، وقد وصفه ابن الأبار بقوله: "وكان لا يدرك شأوه، ولا يبلغ مداه في العناية بصناعة الحديث وتقييد الآثار وخدمة العلم مع حسن التفنن فيه والتصرف الكامل في فهم معانيه إلى اضطلاعه بالنظم والنثر، ومهارته في الفقه ومشاركته في اللغة العربية. وبالجملة، فكان جمال العصر، ومفخرة الأفق، وينبوع المعرفة، ومعدن الإفادة. وإذا عدت رجالات المغرب فضلا عن الأندلس حسب فيهم صدرا. وله تواليف مفيدة كتبها الناس وانتفعوا بها، وكثر استعمال كل طائفة لها. وفي **مشارق الأنوار** منها، كان أبو عمرو المعروف بابن الصلاح ينشد، أخبرني بذلك من أصحابنا من سمعه:

مشارق أنوار تسنت بسبتة وذا عجب كون المشارق بالغرب"(١٥)

وساهم في تعزيز مدرسة القاضي عياض جملة من تلامذته أمثال القاضي أبي عبيدالله بن غاز السبتي(١٦)، وابن عبيدالله الحجري الذي كانت له مدرسة تعد استمرارية لمدرسة رواية الحديث بالمرية

١٤- المرجع السابق، ص ١٨٣- ١٨٤، تر ٨٣.

١٥- ابن الأبار، **معجم أبي علي الصدفي**، ص ٢٩٥-٢٩٦، تر ٢٧٩.

١٦- عرفه ابن غازي بأنه محمد بن حسن بن عطية بن غاز بن خلوف بن محمد بن موسى بن هارون بن عبدالله بن عبدالعزيز بن عبدالله بن أحمد بن جابر بن عبدالله صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. يحمل عن عياض وابن هشام اللخمي. وذكر روايته من طريق أبي بكر البلفيقي عن القاضي أبي الحسن الغافقي عن القاضي أبي عبدالله محمد بن عبدالله بن أحمد الأزدي عن القاضي أبي عبدالله بن غاز عن القاضي عياض عندما تعرض لروايته كتاب **الشفا** لعياض، ثم عقب على ذلك بقوله: "وكذا يروي أبو البركات البلفيقي تآليف عياض بهذا السند المسلسل بالقضاة". أبو عبد الله محمد بن أحمد بن غازي، **فهرس ابن غازي**، تحقيق: محمد الزاهي، دار بوسلامة للطباعة...

بعد نزوحه عنها بسبب تغلب العدو عليها. وقد أمضى قريبا من ثلاثين سنة يسمع الحديث بسبتة حتى أصبحت مقصد الطالبين من بلدان أخرى ممن يرغبون في سماع الحديث سواء من الأندلس أم المغرب أم المشرق. فكثر تلامذته من السبتيين وغيرهم، كأبي الحسن علي ابن الفقيه أبي عبدالله محمد بن علي بن محمد بن يحيى الغافقي الشاري الذي أخذ كثيرا من أعلاق المشيخة، واعتنى بالرواية، واقتنى أكثر مهمات الدواوين العلمية وأصولها، وانفرد بفضيلة التحبيس منها لجملة كبيرة انتقاها من أعلاقه من كل فن من فنون علم السنة، وقفها على طلبة العلم مع موضع برسمها في مدينة سبتة، وجعل لها وقفا جيدا من ماله وفي خيار رباعه، محتذيا في ذلك طريقة أهل المشرق. وكان يدرس بالجامع الأعظم بسبتة كتاب **الجامع الصحيح** للبخاري معتمدا على أصول عتيقة كرواية أبي ذر والأصيلي والقابسي وابن ورد، وكتاب **الإلماع** للقاضي عياض[١٧]. وصفه ابن رشيد بأنه "خاتمة المسندين، وآخر الجلة العلة من المحدثين"[١٨]. ومن تلاميذه أيضًا أبو فارس بن الهواري الذي وصفه ابن رشيد بقوله: "وكان ممن هو من أسند شيوخ بلدي الذين أدركهم مولد ولدي، وأشهرهم ثقة وعدالة، وأحسنهم سمتا وصمتا: الشيخ الفقيه الفاضل العدل أبو فارس عبدالعزيز ابن الفقيه المحدث الراوية العدل المتقن السري الموثر أبي إسحاق إبراهيم بن عبدالعزيز بن أحمد بن عبدالرحمن الجزيري... السبتي الاستيطان..."، وأسند إليه رواية **صحيح البخاري**[١٩]، وأبو القاسم التجيبي السبتي (ت٧٢٠هـ) صاحب **البرنامج**، وابن رشيد الفهري (ت٧٢١هـ) صاحب الرحلة الشهيرة **ملء العيبة بما عرف بطول الغيبة في مكة وطيبة**.

ومما زاد في إغناء المدرسة الحديثية بسبتة نزوح علماء الأندلس من الجانبين الشرقي والغربي إليها على عهد بني مرين بعد سقوط الأندلس، فقد نزل كثير من علماء بلنسية مدينة سبتة، وكذا من مدينة مرسية وهم يمثلون الجهة الشرقية من الأندلس، ومن الجهة الغربية نجد جماعة كبيرة من علماء إشبيلية

...والنشر والتوزيع، تونس، ١٩٨٤م، ص ١٠٥-١٠٦. وله به رواية **الإلماع إلى أصول الرواية وتقييد السماع** للقاضي عياض، وكتاب **بغية الرائد** له أيضًا. **فهرس ابن غازي**، ص ١٠٩.

١٧- الرعيني، **برنامج الرعيني**، تحقيق: إبراهيم شبوح، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٣٨١هـ/ ١٩٩٢م، ص ٧٤-٧٦، تر ٢٤.

١٨- أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد السبتي، **إفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح**، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الدار التونسية للنشر، ص ٧٨.

١٩- المرجع السابق، ص ٧ وما بعدها.

يفدون على سبتة للإقامة بها بعد سقوط إشبيلية بيد النصارى سنة ٦٤٦هـ[٢٠].

عبر هذه الإطلالة يتبين لنا أن مدينة سبتة كان لها من العوامل الكافية لازدهار الحركة الحديثية بها، اكتفيت بذكر بعض الجهود الواردة في ذلك علما على غيرها مما يتطلب مجلدات ضخمة للإحاطة بكل ذلك.

المبحث الثاني: العمل الإبداعي في الدراسات الحديثية بسبتة

تعددت مجالات الإبداع عند المغاربة في المجال الحديثي وغيره، إلا أن ما يهمنا هنا هو الكلام عما يتعلق بالحديث. والمتأمل في عطاء السبتيين يلمس أنه يمثل في واقع الأمر جزءا من عطاء المغاربة والأندلسيين، لأنه تبين لنا في المبحث السابق أن سبتة كانت بلد عبور، بمعنى محل التواصل بين كل البلدان، مشرقها ومغربها وأندلسيها، وكان السبتيون يرحلون بدورهم إلى المشرق لأداء مناسك الحج فتكون رحلاتهم مناسبة للالتقاء بأهل العلم والأخذ عنهم عن طريق السماع أو المناولة أو الإجازة، كما كانت الأندلس تمثل قبلة المتعطشين إلى طلب العلم، وكانت قرطبة أهم العواصم العلمية في ذلك إلى جانب عواصم أخرى في الجانب الغربي من الأندلس كما هو الحال بالنسبة لإشبيلية ومرسية وغيرها، ومن لم يستطع الرحلة أو رحل لكنه لم يكتب له الالتقاء بمن يريد، فإننا نجده يبعث بطلب الإجازة لنفسه ولغيره، ومنهم من توصل بمكاتبات من المشرق، إلى جانب بقية المدن المغربية التي كانت محط عناية المرتحلين كما هو الحال بالنسبة لفاس ومراكش... فلا عجب إذًا أن نجد استيعاب السبتيين علوم غيرهم وعملهم على تطويره ولم لا الإبداع بالتصنيف بطريقة لم يسبقوا إليها، أو صياغة فكرة يرون أنها في حاجة إلى التأليف فيها، والكتابة الدقيقة في مجال الدراسات الإسلامية بحيث صاروا محط نظر غيرهم، واعتمادهم عليهم فيحسب لهم حسابهم في التعليقات التي يقدمونها.

ومقصودنا بالعمل الإبداعي لا يقتصر على الإتيان بشيء غير مسبوق على مستوى التصنيف في الدراسات الحديثية، بل يشمل إضافة إلى ذلك صياغة الأفكار التي كان لها تأثير في المسيرة العلمية، والكتابة الدقيقة التي جعلت منهم رجالا لهم شأوهم ممن اعتمد عليهم الشرق والغرب.

على هذا الأساس، يمكن لنا أن نذكر بعض المجالات التي أبدعوا فيها لا على سبيل الاستقصاء، لأنه أمر يعز علينا بسبب ضياع كثير من المصنفات، ومنها مازال بين أيدي الخواص لم نتمكن بعد من الاطلاع عليها.

٢٠- محمد بن عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م، ص ٦٠.

١- التأليف في الفهارس

إن الكلام عن التأليف في الفهارس لا يسلمنا إلى القول إن السبتيين أول من ألفوا في ذلك، لأن الأندلسيين كانوا سابقين في هذا المجال(٢١)، ولم يبدأ المشارقة في التصنيف فيها إلا بعد مدة(٢٢)، وهذا يعني أن الأندلسيين كانوا بحق مبدعين في ذلك بكل ما في الكلمة من معنى. إلا أن إبداع السبتيين في هذا النوع من التصنيف يرجع إلى التطوير الذي أحدثوه في عرض المادة العلمية بعدما استفادوا من عطاء الأندلسيين ومنهجهم في التصنيف في الفهارس.

والفهرسة تصنيف يهتم ببيان مرويات المؤلف في كل أنواع العلوم التي حصل عليها، والأسانيد التي تربطه بها، درج علماء الأندلس وسبتة والمغرب على إدراج جملة من الفوائد فيها تخص أهمية الكتاب، وزمن تحمله، وكيفية ذلك، وعدد المرات التي تحمله، والشيوخ الذين عن طريقهم وصل إليه، والتعريف بهم، وبيان خصائص هذا الطريق من علو وغيره، مع تنوع في المنهج المتبع عند التأليف. وذلك مما يعطي صورة واضحة عن معالم الثقافة في عصر معين، وطبيعة اهتمامات علماء المرحلة التي صنفت فيها الفهرسة. ويطلق عليه أيضًا لفظ البرنامج، وهذا ما اشتهر على لسان علماء الغرب الإسلامي، بينما مال المشارقة لاحقا إلى استعمال لفظ الثبت والمشيخة والمعجم، مع أن الوادي آشي الأندلسي (ت٩٣٨هـ) استعمل لفظ "الثبت"، لكنه كان استثناء وفي وقت متأخر جدا.

إلا أن الملاحظ أن هذه التصانيف على كثرتها في الغرب الإسلامي(٢٣) لم يبلغنا منها إلا النزر اليسير بسبب التلف الذي تعرضت له مكتبات المسلمين من إتلاف من قبل الإسبان بعد استيلائهم على البلاد، ولا ننسى أن محاكم التفتيش التي تتبعت المسلمين بالتقتيل والتعذيب وغيره انصب اهتمامها على إحراق كتب المسلمين حيث بلغ عددها ما يزيد على مليون كتاب بغرناطة(٢٤)، كما أحرقوا المسلمين أيضًا، ونجا من الحرق مجموعة من الكتب هربوها إلى بعض الأديرة ومدن أخرى، لكنها ليست بحجم

٢١- أكد تقدمهم على غيرهم في هذا المجال عبد العزيز الأهواني، "كتب برامج العلماء في الأندلس"، ضمن **مجلة معهد المخطوطات العربية**، ع ١، ١٩٥٥م، ص ٩١.

٢٢- تراجع الدراسة التي قدم بها إبراهيم شبوح في تحقيقه لكتاب: **برنامج الرعيني**.

٢٣- لا نمر بترجمة من تراجم علماء الغرب الإسلامي إلا ونجد أن المعني بالأمر له فهرسة أو برنامج.

٢٤- هذا خلافا لمزاعم المستشرق خوليان ريبيرا في دعواه أنها كانت بضعة آلاف.

Julian Ribera, *Bibliofilos Y Bibliotecas En La Espana Musulmana*, Zaragoza, 1896, p.12.

ما أحرقوا. لأجل ذلك، فإن أقدم كتاب ألف في هذا المجال وصل إلينا إلى حد الساعة في المغرب[٢٥]: **الغنية** للقاضي عياض (ت٥٤٤هـ)، بينما أقدم ما وصل إلينا من الأندلس حتى الآن: **فهرس ابن عطية** (ت٥٤١هـ).

ويمكن لنا تلمس طرق التصنيف في الفهارس ليتبين لنا وجه الإبداع في هذا المجال عند السبتيين، سبق إلى توضيحها الدكتور الأهواني، فقد أرجع ذلك إلى أربعة طرق:

الطريقة الأولى: إيراد المصنفات مرتبة بناء على التخصص الذي تنتمي إليه، فنجد كتب علوم القرآن والتفسير، ثم كتب الحديث وعلومه، إلخ. يمثل هذه الطريقة ابن مسعود الخشني (ت٥٤٤هـ)، دفين غرناطة، إلا أنه لم يصلنا من عمله إلا وريقات، وابن خير الإشبيلي (ت٥٧٥هـ) في **فهرسته**، وابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) من المشارقة في كتابه المسمى: **المعجم المفهرس**.

والطريقة الثانية: تعمد إلى ترتيب مادة الكتاب على الشيوخ، فيترجم لهم المؤلف، ثم يأتي على ذكر مروياته عنهم. يمثل هذا الاتجاه في التصنيف: أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية المحاربي (ت٥٤١هـ) في **فهرسته**، والقاضي عياض (ت٥٤٤هـ) في **الغنية**، وأبو الحسن علي بن محمد بن علي الرعيني (ت٦٦٦هـ) في **برنامجه**.

والطريقة الثالثة: تجمع بين الطريقتين السابقتين، بحيث يتم ترتيب المادة العلمية على الكتب مع الترجمة للشيوخ ويمثل هذه الطريقة: قاسم بن عبدالله بن محمد بن الشاط (ت٧٢٣هـ) فيما جمعه لشيخه ابن أبي الربيع في **برنامجه** وأبو عبدالله محمد بن جابر الوادي آشي التونسي الأندلسي الأصل (ت٧٤٩هـ) في **برنامجه**، فقد جعله في جزءين: الأول في أسماء الشيوخ والترجمة لهم من غير التزام بحروف الهجاء، والثاني في بيان ما أخذ عن كل واحد منهم بحسب التخصص بادئا بالقرآن وعلومه، ثم الحديث وعلومه، وهكذا. فصار كأننا أمام كتابين مستقلين.

والطريقة الرابعة: يوجد أنموذج عنها في برنامج أبي الحسن بن مؤمن (ت٥٩٨هـ)، أندلسي، دفين

٢٥- ذكر ابن خير الإشبيلي أنه يروي تواليف أبي علي إسماعيل بن القاسم البغدادي (ت٣٥٦هـ) وجميع رواياته عن شيوخه، حدثه بها الشيخ أبو عبدالله محمد بن سليمان بن أحمد النفزي رحمه الله عن الأديب أبي محمد غانم بن وليد المخزومي، عن أبي بكر عبادة بن ماء السماء، عن أبي بكر الزبيدي، عن أبي علي البغدادي رحمه الله. فهرسة ابن خير، ص ٣٩٣، رقم: ١٢٩٩. وقد دخل الأندلس سنة ٣٣٠هـ، ولا يوجد بين أيدينا أي دليل على أنه ألفه قبل التحاقه بالأندلس، كما لا نجد تصنيفا على الفهارس في المشرق تكلم عنه العلماء قبله، وفي الوقت ذاته لم يذكر له ابن خير أنه ألف فعلا فهرسة أو غيرها، وكل ما ذكر أن كتبه يرويه بسنده المذكور.

فاس، وصف ابن عذاري كتابه **بغية الراغب ومنية الطالب** بأنه كتاب أودعه فوائد كثيرة كاد يخرج بها عن حد الفهارس إلى كتب الأمالي المفيدة، إلا أن هذه الطريقة لم تنتشر بين المفهرسين(٢٦).

من خلال ما سبق، يتضح أن المنهج المتبع عند القاضي عياض لم يكن غريبا في مجمله عما هو معمول به في الأندلس، فنظيره ابن عطية معاصره سار على نفس المنوال، لكننا بعد الموازنة بينهما نجد جملة من الفروق في عرض المادة العلمية:

١- التعريف بالشيوخ كما هو شائع لدى الأندلسيين في الفهارس، إلا أن عددهم عند القاضي عياض يفوق بكثير عدد الشيوخ عند ابن عطية.

٢- تقديم صورة متكاملة عن الشيخ مستفيدا في ذلك من خبرته في كتابة التراجم بشكل منظم من بداية الفهرس إلى آخره على طريقة واحدة إلا فيما ندر، وهو صاحب **ترتيب المدارك** الذي له وزن واعتبار في تراجم علماء المالكية.

٣- البدء بالمحمدين، ثم ترتيب بقية الأسماء على الحروف الهجائية، على خلاف ما سلكه غيره.

٤- أتى بالأسانيد التي روى بها المصنفات بعد الترجمة مع الكلام عليها، وفي ذلك تقديم للجهود الثقافية التي كانت قائمة في عهده، والتبادل الثقافي بين المشرق والمغرب بما في ذلك سبتة التي ينتمي إليها القاضي عياض والأندلس.

٥- الاختتام بمرويات حديثية أو شعرية عن شيوخه مما أعطى فهرسته ذوقا خاصا يستفيد منه كل راغب من مشارب متعددة.

وبهذا، يظهر أن القاضي عياض في **فهرسته** لم يقتصر على السير على منوال السابقين، بل نجد له شخصية خاصة في طريقة التأليف.

كما نلمس عنايته الفائقة في تتبع الأصول العتيقة واعتمادها في الترجيح عند اختلاف النسخ، حتى عد أصل القاضي عياض أقوى وأضبط من أصل غيره بسبب عنايته بالضبط، وهذا ما يظهر بجلاء في كتابه **مشارق الأنوار**.

ويأتي وجه آخر من الإبداع عند السبتيين مع ابن رشيد السبتي (ت٧٢١هـ) الذي جعل من رحلته فرصة لتدوين مروياته وسرد الفوائد التي وقف عليها وتعليقاته النفيسة وتصويباته لما رآه أولى مما أفاده من تجربته وملاقاته الشيوخ منذ انطلاقه من سبتة إلى المدينة النبوية وصدوره منها إلى موطنه سبتة،

٢٦- الأهواني، **كتب برامج العلماء في الأندلس**، ص ٩٦-١٢٠.

فقد كان حريصا على الأخذ عن الشيوخ حيثما حل، وهو الشاب اليافع الذي خرج من سبتة ولم يتجاوز عمره السابع والعشرين سنة مما جعل رحلته المسماة **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة** تعد نوعا من التصنيف في الفهارس[٢٧]، لأنه حشد فيها كل ما توصل إليه من علم على أيدي الشيوخ، وما أخذه عنهم من مرويات، كما دون المساجلات العلمية التي جرت بينه وبين غيره. وقد وصفه ابن حجر العسقلاني بالمحقق الحافظ المدقق الرحال إلى المشرق والمغرب، ثم قال: "ولقد وقفت على فوائد رحلته في ست مجلدات، أتى فيها بالعجب العجاب، ولقي فيها مسند دمشق الفخر بن البخاري، ومسند مصر العز الحراني، ومجتهد العصر ابن دقيق العيد وأقرانهم، ورجع إلى بلده سبتة بعلم جم رحمه الله..."[٢٨]. وهذا النوع من الإبداع غفل عنه سابقوه مع أنهم رحلوا، إلا أن تركيزهم على هذا الجانب لم يبلغ شأو ما بلغ إليه كتاب ابن رشيد، فلا عجب عندما نجد الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة ينوه به قائلا: "ليس من المبالغة إذا ادعينا أن **ملء العيبة** يعتبر أنفس ما كتبه ابن رشيد، وأفضل ما قيده. وهو من جهة ثانية، يزهو على بقية الرحلات التي من جنسه مثل **رحلة التجيبي**، و**تاج المفرق** للبلوي، و**الأفق المشرق** لابن الطيب، وغيرها. ولو أخذنا في الموازنة بين هذا الكتاب وبين بقية كتب ورسائل ابن رشيد، أو عدنا إلى المفاضلة بينه وبين الرحلات الحجازية والعلمية التي أثرت عن العديد من العلماء والكتّاب لتبين لنا أن هذه الرحلة التي تطلعت إليها الأنفس من زمن بعيد وازداد شوقهم إليها في هذا العصر ـ عصر إقبال المحققين على إحياء التراث ـ يمثل ثروة علمية رائعة، ويترجم عن طور من أطوار الحياة الفكرية في العالم العربي الإسلامي في أواخر القرن السابع"[٢٩]. وهذه شهادة قيمة من الشيخ محمد

٢٧- لقد عد عبدالمهيمن الحضرمي ـ تلميذ ابن رشيد ـ كتاب ابن رشيد هذا برنامجا، فقد جاء في آخر النسخة عند انتهائه من قراءة الكتاب على شيخه: "أكملت قراءة هذا البرنامج في يوم الأحد الحادي عشر لرجب، عام عشرين وسبعمائة. قاله عبدالمهيمن الحضرمي وفقه الله" حسب ما نبه عليه الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجه في مقدمة تحقيق لكتاب ابن رشيد السبتي: **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة**، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٢م، ج ٢، ص ٣٣.

٢٨- الحافظ ابن حجر العسقلاني، **تغليق التعليق**، تحقيق: سعيد القزفي، المكتب الإسلامي، ودار عمار، بيروت، والأردن، ط١، ١٤٠٥هـ، ج ٢، ص ٧.

٢٩- مقدمة تحقيق الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة لكتاب **ملء العيبة**، ج ٢، ص٣١. المطبوع لحد الساعة حسب علمي: الجزءان الثاني والخامس من الكتاب، قيض الله من يعين على الوقوف على باقيه، والتصدر لتحقيقه لنفاسته. ومما يلزم التنبيه عليه أن الجزء الخامس قد سمعه جميعه نجل ابن رشيد السبتي بقراءة عبدالمهيمن الحضري، الذي..

الحبيب ابن الخوجة وهو الذي أمضى تسعة عشر عاما يدرس ويبحث قضايا **ملء العيبة**.

وقد كان لهذه الرحلات التي تمت إلى الحرمين أساسا دور كبير في المحافظة على اتصال الأسانيد في رواية الكتب شرقا وغربا، وبرزت في ذلك عناية المغاربة والسبتيين منهم والأندلسيين في ضبط النسخ المروية وجمعها حتى عرف عن بعضها أنها اشتهرت في المغرب، وكان لذلك أثره في تصحيح الروايات اعتمادا على النسخ المروية المضبوطة التي اعتنوا بها عناية فائقة، إلى جانب أنهم لم يقفوا عند حدود رواية سند واحد يروى به الكتاب، بل يعددون الأسانيد تحقيقا للغرض المذكور آنفا.

ولم يقف الأمر عند حدود تأليف فهرسة عامة تشمل كل المرويات التي تحملها المصنف، بل نجدهم يفردون لكتاب واحد تصنيفا مستقلا، يذكرون فيه الأسانيد التي تحملوه بها، مع كلام نفيس عن الرواة الواردة أسماؤهم في الأسانيد، وبيان خصائصها، فكان كل ذلك عملا يستحق التنويه والإشادة كما هو الحال بالنسبة لصنيع الشاري السبتي، أبي الحسن علي ابن الفقيه أبي عبدالله محمد بن علي بن محمد بن يحيى الغافقي (ت٦٤٩هـ)، فقد جرد لتلميذه الرعيني جزءا أخرج فيه أسانيده في **الجامع الصحيح**، وذكر فيه قراءة الرعيني له عليه(٣٠).

وكذا ابن رشيد السبتي (ت٧٢١هـ) في كتابه **إفادة النصيح بالتعريف بسند الجامع الصحيح**، كان سبب تأليفه له أنه بحث عن أسند محدث بسبتة ليأخذ عنه **صحيح البخاري** ويسمعه معه ابنه لحرصه على توجيهه العلمي، فكان أن وقف على الشيخ أبي فارس عبد العزيز الجزيري المعروف بالضبط، وكذا والده الذي أخذ عنه، فسمعا منه، وفي ذلك قال: "وكان ممن هو من أسند شيوخ بلدي الذين أدركهم مولد ولدي، وأشهرهم ثقة وعدالة، وأحسنهم سمتا وصمتا: الشيخ الفقيه الفاضل العادل أبو فارس عبدالعزيز ابن الفقيه المحدث الراوية العدل المتقن السري الموثر أبي إسحاق إبراهيم بن عبد العزيز بن أحمد ابن عبدالرحمن الجزيري المحتد، نسبة إلى جزيرة شقر، ومن صدورها وأعيانها، التلمسيني المولد، السبتي الاستيطان، مد الله مدته ووصل عزته. وظفرنا من سماعه لـ: **صحيح البخاري** بإسناد لا نظير له في بلاد المغرب، جلالة رجال، واتصال سماع، وعلو صفة، مع أنه لا يخلو من علو مسافة. ولقد كان أبو إسحاق

... حلاه هذا الابن بصفات الرفعة في العلم، حيث قال فيه: "الفقيه المحدث المتفنن المتقن الكاتب البليغ الحامل السري..."، وذلك في سنة ٧٢٠هـ، أي: قبل سنة من وفاة ابن رشيد رحمه الله. ورد ذلك في الملحق ١- ب من كتاب: **ملء العيبة**، ج ٥، ص ٤٠٨.

٣٠- الرعيني، **برنامج الرعيني**، ص ٧٥.

رحمه الله لما جبل عليه من حب السنة والعناية بكتب الحديث وكتبه، وروايته وتقييده وضبطه رغبه في السماع قديما، وبارك الله في عمره حتى عد سماعه من العالي، إذ قد راهق قدم سماعه الستين... فرغبت إليه في سماعه عليه وإسماع بني محمد هداه الله تعالى فأجاب إلى ذلك والله يبقيه ويقيه. فرأيت أن أجمع هذا الجزيء برسمه وأسمه بوسمه، وأعرف بني سلسلة إسناده حلقة حلقة. والله ينفع بالقصد في ذلك"(٣١).

وبهذا تظهر لنا جملة من المقاصد عند ابن رشيد في صنيعه هذا، فإنه قصد توجيه ولده لسماع **صحيح البخاري**، واختار لذلك أتقن من عرف في هذا الباب بسبتة، ثم تعريفه بكل حلقات الإسناد، مع بيان خصائصه.

كما أن معاصره ـ وهو ابن الشاط ـ القاسم بن عبدالله (ت٧٢٣هـ)، نجده ألّف كتاب **الإشراف على أعلى شرف في التعريف برجال سند البخاري من طريق الشريف أبي علي بن أبي الشرف**، وأجازه لابن رشيد وابنه بناء على طلبه، مع إقرار ابن الشاط بفضل ابن رشيد، وأنه منه استفاد...(٣٢). وكان اختيار ابن أبي الشرف للأخذ عنه بناء على ما عرف به من سماع لـ: **صحيح البخاري** وضبط له، فاقترح بعض الإخوان على ابن الشاط أن يصنف في ذلك تأليفا في التعريف برجال أسانيده، فانبرى لهذا الغرض(٣٣).

وقد كان هدف الأخيرين إحياء رواية الحديث بسبتة والترغيب فيه بعدما أعرض عنه القوم في هذه المرحلة واعتنائهم بالفروع.

٢- التأليف في ضبط نسخ المصنفات الحديثية

يأتي في قمة هذا المجال القاضي عياض (ت٥٤٤هـ) في كتابه: **مشارق الأنوار على صحاح الآثار**، عمد فيه إلى ضبط الألفاظ الواردة في **الموطأ** و**الصحيحين**، موازيا بين الروايات، معتمدا الصحيح منها معتمدا على الأصول العتيقة.

وجانب الإبداع في هذا المجال عند القاضي عياض يتجلى في كونه أول من قام بالتأليف في ضبط الروايات في كتاب مستقل يفي بالمراد، وما ألف في ذلك من التصحيفات عند المحدثين لا يعنى بالمصنفات بقدر ما يعنى بالأخطاء ذاتها من غير التزام بكتاب، ولهذا قال القاضي عياض: "... ولم يؤلف في هذا

٣١- ابن رشيد، **إفادة النصيح بالتعريف بسند الجامع الصحيح**، ص ٧-٩.

٣٢- أورد نص الإجازة محقق كتاب **الإشراف على أعلى شرف**، إسماعيل الخطيب رحمه الله، ص ١١٩-١٢٠.

٣٣- القاسم بن عبد الله بن الشاط، **الإشراف على أعلى شرف في التعريف برجال سند البخاري من طريق الشريف علي ابن أبي الشرف**، تحقيق: إسماعيل الخطيب، جمعية البعث الإسلامي، تطوان، ١٩٨٦م، ص٤٥.

الشأن كتاب مفرد تقلد عهده ما ذكرناه على أحد هذه الكتب أو غيرها إلا ما صنعه الإمام أبو الحسن علي ابن عمر الدارقطني في **تصحيف المحدثين**، وأكثره مما ليس في هذه الكتب، وما صنعه الإمام أبو سليمان الخطابي في جزء لطيف، وإلا نكتا مفترقة وقعت أثناء شروحها لغير واحد لو جمعت لم تشف غليلا ولم تبلغ من البغية إلا قليلا، وإلا ما جمع الشيخ الحافظ أبو علي الحسن بن محمد الغساني شيخنا رحمه الله في كتابه المسمى بـ: **تقييد المهمل**، فإنه تقصى فيه أكثر ما اشتمل عليه الصحيحان، وقيّده أحسن تقييد، وبيّنه غاية البيان، وجوّده نهاية التجويد، لكن اقتصر على ما يتعلق بالأسماء والكنى والأنساب وألقاب الرجال دون ما في المتون من تغيير وتصحيف وإشكال، وإن كان قد شذ عليه من الكتابين أسماء واستدركت عليه فيما ذكر أشياء، فالإحاطة بيد من يعلم ما في الأرض والسماء"(٣٤).

وبهذا يظهر أن القاضي عياض لم يقف عند حدود الاجترار، بل اجتر وهضم وأنبت بحول من الله وقوته، وهذا ما شهد له به العلماء، وقد ذكر ابن الأبار أنه "كان أبو عمرو المعروف بابن الصلاح ينشد، أخبرني بذلك من أصحابنا من سمعه:

مشارق أنوار تسنت بسبتة وذا عجب كون المشارق بالغرب"(٣٥)

وهذا المقري يقول في القاضي عياض و**مشارقه**: "... كان رحمه الله معتنيا بضبط الألفاظ النبوية على اختلاف طرقها، وكتابه **المشارق** أزكى شاهد على ذلك. ولقد كان بعض من لقيته من صلحاء عصرنا وعلمائه يقول: لا أحتاج في كتب الحديث إلا **للمشارق**، فإذا كان عندي فلا أبالي بما فقدت منها. أو كلاما هذا معناه"(٣٦).

وهذا الجهد الذي صرفه القاضي عياض في ضبط الروايات في الأصول الثلاثة، وتحمل مشاق الرحلة للسماع من الشيوخ الكتاب الموجود بين يديه مما لديهم به رواية من أجل سماعه مرة أو أكثر من ذلك، وتتبع النسخ العتيقة، والحرص على تصحيح المسموعات يعود إلى المنهج الذي سلكه في قبول الرواية المعتمد على صحة النقل، وهو الذي يذكر: "عن بعض أهل التحقيق أنه لا تصح المقابلة مع أحد غير نفسه، ولا يقلد غيره"(٣٧)، فلا نستغرب عندما نجده يلوم المشايخ الذين يتساهلون في التحمل

٣٤- القاضي عياض، **مشارق الأنوار على صحاح الآثار**، المكتبة الإسلامية ودار التراث، تونس والقاهرة، ج ١، ص ٥-٦.

٣٥- ابن الأبار، **معجم أبي علي الصدفي**، ص ٢٩٥-٢٩٦، تر ٢٧٩.

٣٦- المقري، **أزهار الرياض في أخبار عياض**، ج ٣، ص٢١.

٣٧- القاضي عياض، **الإلماع إلى أصول الرواية وتقييد السماع**، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث والمكتبة العتيقة، القاهرة وتونس، ط١، ١٩٧٠م، ص ١٤٢.

والأداء، ولا يدققون في صحة ذلك، وفي ذلك قال: "... وقد كان فيمن تقدم من هو بهذه السبيل من الاقتصار على أداء ما سمع وروى، وتبليغ ما ضبط ووعى، دون التكلم فيما لم يحط به علما، أو التسور على تبديل لفظ أو تأويل معنى، وهي رتبة أكثر الرواة والمشائخ. وأما الإتقان والمعرفة، ففي الأعلام والأئمة، لكنهم كانوا فيما تقدم كثرة وجملة، وتساهل الناس بعد في الأخذ والأداء حتى أوسعوه اختلالا، ولم يألوه خبالا، فتجد الشيخ المسموع بشأنه وثنائه المتكلف شاق الرحلة للقائه تنتظم به المحافل ويتناوب الأخذ عنه ما بين عالم وجاهل، وحضوره كعدمه، إذ لا يحفظ حديثه ويتقن أداءه وتحمله، ولا يمسك أصله فيعرف خطأه وخلله، بل يمسك كتابه سواه ممن لعله لا يوثق بما يقوله ولا يراه، وربما كان مع الشيخ من يتحدث معه أو غدا مستثقلا نوما أو مفكرا في شؤونه حتى لا يعقل ما سمعه... وأكثر سماعات الناس في عصرنا وكثير من الزمان قبله بهذه السبيل"(٣٨).

لأجل ما سبق، انبرى القاضي عياض إلى تأليف **مشارق الأنوار** لإحياء سنة ضبط المرويات من الكتب، والحث عليها، فكان نجما علا سماء المغرب والأندلس، وسطع نوره بالمشرق، مما شهد له به القريب والبعيد، فكان مما يعول عليه عند المعارضة: عرض الرواية على القرآن الكريم، وعرض رواية مجموعة من شيوخه على شيخ آخر له، وعرضها على أصحاب الأصول الثلاثة، وعرضها بين الأئمة الثلاثة، وعرضها بين النسخ الخطية الأصول(٣٩).

٣- التأليف في مناسبة الأحاديث للأبواب

إن أقدم كتاب وقفنا عليه في مناسبة الحديث للباب يخص **الجامع الصحيح** للبخاري ما ألفه ناصر الدين أحمد بن المنير (ت٦٨٣هـ)، الموسوم بـ: **المتواري على أبواب البخاري**، ثم كتاب **ترجمان التراجم** لابن رشيد السبتي (ت٧٢١هـ)، فهو على هذا الأساس ثاني كتاب حسب علمنا في هذا الباب اعتنى ببيان وجه المناسبة بين الحديث والترجمة الواردة في **صحيح البخاري**.

وقد كان الهدف من وراء ذلك عند ابن المنير دفع دعاوى عدم الانسجام بين الحديث والترجمة، والعمل على توضيح العلاقة الخفية بينهما التي هي مقصد البخاري، ردا على من زعم أنه اخترم ولم يرتب الكتاب والأبواب، أو جاء الخلل من النساخ والنقلة، أو أبعد المنجع في الاستدلال، ثم قال: "فلما قدر لي

٣٨- القاضي عياض، **مشارق الأنوار على صحاح الآثار**، ج ١، ص ٣.

٣٩- لقد فصل في ذلك الباحث علي مسعودان، **ضبط الحديث في كتاب مشارق الأنوار على صحاح الآثار للقاضي عياض المالكي**، رسالة الماجستير، جامعة الحاج الخضر، باتنه، الجزائر، عام ٢٠١٣-٢٠١٤م، ص ٦٨-٩١.

أن أتصحفها وأتلمحها، لاح لي عن قرب وكثب مغزاه فيها، فألفيتها أنواعا... ومجموع ما وجدت له من هذه الأنواع قريب أربعمائة ترجمة تحتاج التنبيه، فأثبتها ونبهت على كل نوع منها في مكانه بأقصر الإمكان وأخصر وجوه البيان..."(٤٠).

وقد وقف ابن رشيد على كتاب ابن المنير وأفاد منه، فلم يكن مستغربا منه أن يفيد منه في هذا الباب، ويدلي بدلوه فيما قصر فيه غيره لمزيد بيان للمسألة، موافقة أو ردا أو استدراكا عليه، وهو كتاب نوه به ابن حجر العسقلاني في معرض كلامه عمن كتب في مناسبات الأحاديث لتراجم البخاري ردا على مزاعم من تكلم بغير علم في هذا الباب، إذ قال فيه: "... وقد جمع العلامة ناصر الدين أحمد بن المنير خطيب الإسكندرية من ذلك أربعمائة ترجمة وتكلم عليها، ولخّصها القاضي بدر الدين بن جماعة وزاد عليها أشياء، وتكلم على ذلك أيضًا بعض المغاربة، وهو محمد بن منصور بن حمامة السجلماسي ولم يكثر من ذلك، بل جملة ما في كتابه نحو مائة ترجمة، وسماه **فك أغراض البخاري المبهمة في الجمع بين الحديث والترجمة**، وتكلم أيضًا على ذلك زين الدين علي بن المنير أخو العلامة ناصر الدين في شرحه على البخاري وأمعن في ذلك، ووقفت على مجلد من كتاب اسمه **ترجمان التراجم** لأبي عبدالله بن رشيد السبتي، يشتمل على هذا المقصد، وصل فيه إلى كتاب الصيام، ولو تم لكان في غاية الإفادة، وإنه لكثير الفائدة مع نقصه. والله تعالى الموفق"(٤١).

فكان ابن رشيد من الأوائل الذين اهتموا بعلم المناسبات للجمع بين الحديث والترجمة، وأفاد في ذلك أيما إفادة كما اعترف بذلك ابن حجر العسقلاني، وهذا يعد من جوانب الإبداع العلمي عنده، أتينا به أنموذجا لذلك.

٤- التأليف على طريقة المحاكمة في علوم الحديث

هذه طريقة مبتكرة لم نقف عليها إلا عند ابن رشيد السبتي (ت٧٢١هـ) في كتابه **السنن الأبين والمورد الأمعن في المحاكمة بين الشيخين في السند المعنعن**، انبرى فيه لدراسة قضية العنعنة في السند، هل يشترط فيها ثبوت اللقاء أو السماع؟ أم أن مجرد المعاصرة تكفي للحكم على السند بالاتصال؟ وهي مسألة

٤٠- ناصر الدين بن المنير، **المتواري على أبواب البخاري**، تحقيق: علي حسين علي عبد الحميد، المكتب الإسلامي، ودار عمار، بيروت والقاهرة، ط١، ١٩٩٠م، ص ٣٥-٣٩.

٤١- الحافظ ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ج ١، ص ١٤.

يرى فيها الإمام مسلم عدم اشتراط ثبوت اللقاء أو السماع، والاكتفاء بالمعاصرة، وشدد النكير على من اشترط ذلك. فتفاوض ابن رشيد مع أبي القاسم القاسم بن عبدالله الأنصاري في المحاكمة بين الإمامين في هذه المسألة، مع ما عرفا به من مكانة عالية، فذهب صاحبه إلى أنه لا إشكال في نهوض الأدلة على قبوله من مسند الحديث ما علم اتصاله بصريح العبارة أو ما في حكمها، ويأتي بعده في الرتبة عنعنة من عرف عنه أنه لا يقول "عن" إلا فيما سمعه، ويأتي في الرتبة التالية عنعنة من لم يعلم من صنيعه استعمال العنعنة فيما سمع، وكان ثقة غير مدلس، مع اشتراط ثبوت السماع من المروي عنه بالجملة، وأن هذا المذهب أرجح من مذهب من اكتفى بمجرد المعاصرة كما هو حال الإمام مسلم في مقدمة **صحيحه**. فوافق ابن رشيد صاحبه على هذا الرأي، لكنه أمضى ليلته يفكر في الموضوع مقلبا وجوهه، مقلبا أدلته، نائبا عن الإمام البخاري، مستحضرا لأدلته، ناظرا فيها مع أدلة خصمه، سالكا في ذلك مسلك الإنصاف، حتى بانت له حجة البخاري على حجة مسلم، فعرضها على صاحبه فاستحسنها، والتمس منه أن يدون ذلك خشية اندراسها، فكان هذا الكتاب الذي جاء بمثابة محاكمة، يوجه الكلام إلى الإمام مسلم كأنه أمامه، ويناقشه فيما كتب من أقوال وما رآه، يعرض فيها ابن رشيد القول ويفسره، ثم يرده عليه بالدليل نقلا وعقلا إن كان غير مقبول، وانتصر لرأي البخاري في الأخير(٤٢).

كان سلوك ابن رشيد هذا في كتابه جديدا في بابه من حيث الأسلوب، ومن جهة أخرى من حيث تناول قضية جزئية بالدرس والتفصيل لم يعهد ذلك عند السابقين، فكان بصنيعه هذا مبدعا، وبرصانة بحثه مفلقا.

٥- الإبداع في تحديد معالم منهج الرواية

لاشك أن علماء الحديث قاموا بالتصنيف في علوم الحديث في كل جزئياته، وظهرت بذلك مجموعة هائلة من المصنفات في شتى أنواعه، فلما لمسوا الحاجة إلى جمع قواعده تيسيرا لطلاب العلم على الإحاطة به، توجهوا إلى جمع شوارده، فنجد ابن خلاد الرامهرمزي، أبا محمد الحسن بن عبدالرحمن (ت٣٦٠هـ) يؤلف كتاب **المحدث الفاصل بين الراوي والواعي**، ثم جاء بعده الحاكم النيسابوري، محمد ابن عبدالله (ت٤٠٥هـ) فألف كتابه **معرفة علوم الحديث**، ثم الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت٤٦٣هـ)، فألف مجموعة من الكتب في هذا المجال، أفاد منها كل مشتغل بالعلم، منها: **الكفاية في**

٤٢- أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد السبتي، **السنن الأبين والمورد الأمعن في المحاكمة بين الإمامين في السند المعنعن**، تحقيق: أبو عبد الرحمن سالم المصراتي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ط ١، ١٤١٧هـ، ص ٢٩-٣٣.

علوم الرواية، و**الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، وفي سبتة نجد القاضي عياض (ت٥٤٤هـ) يصنف كتابه **الإلماع إلى أصول الرواية وتقييد السماع**، ثم تتالى التصنيف، فمن شارح ومختصر وناظم ومعقب بما زخرت به المكتبة الحديثية مشرقا ومغربا.

وكلامنا هنا ينصب على كتاب القاضي عياض لبيان مدى إسهامه القوي في هذا الباب، وهو الذي يمثل سبتة في عهده إلى جانب المغرب والأندلس، نجده لما يتكلم عنه يقول عندما طلب منه أحدهم أن يكتب في ذلك بعدما ذكر له جملة من العلوم التي تنهض عليها علوم الحديث: "... وكل فصل من هذه الفصول علم قائم بنفسه، وفرع باسق على أصل علم الأثر وأسه. وفي كل منها تصانيف عديدة، وتآليف جمة مفيدة، ولم يعتن أحد بالفصل الذي رغبته كما يجب، ولا وقفت فيه على تصنيف يجد فيه الراغب ما رغب، فأجبتك إلى بيان ما رغبت من فصوله، وجمعت في ذلك نكتا غريبة من مقدمات علم الأثر وأصوله"(٤٣). كما نجده ينص في **إكمال المعلم** على تفرده بالإضافة فيه وفي **الإلماع**، فنجده يقول بعد الانتهاء من الكلام عن الإجازة: "وقد ذكرنا منه ما يحتاج إليه من له تهمم بهذا الباب وعلمه، وبسطنا الكلام في هذه الفصول في كتاب **الإلماع لمعرفة أصول الرواية والسماع**، وأشرنا منه إلى نكت غريبة لعلك لا تجدها مجموعة في غير هذين الكتابين"(٤٤).

عمل القاضي عياض لم يكن في الواقع أول تصنيف في الباب، لأنه قد سبقه غيره إليه، وهذا الخطيب البغدادي الذي قال عنه ابن نقطة: "لا شبهة عند كل لبيب أن المتأخرين من أصحاب الحديث عيال على أبي بكر الخطيب"(٤٥)، لأنهم جميعا استفادوا منه، والقاضي عياض وقف على هذه الكتب وأفاد منها، لأجل ذلك لا يمكن أن يقصد نفي وجود أي تصنيف سابق، ولا نفي جدواه، ولكن يفهم كلامه من خلال السياق، فالسائل لا يعيش في المشرق، بل في سبتة، وجواب القاضي عياض كان لبيان الحال، وهو أنه لم يجد بسبتة ولا في المغرب أو الأندلس ما يسد الحاجة، فكان تصنيفه هذا لتلبية الحاجة بكتاب يعطي للقارئ صورة متكاملة عن المنهج النقلي عند المحدثين، إلا أنه لم يقف عند حدود اجترار أقوال

٤٣- القاضي عياض، **الإلماع**، ص ٥.

٤٤- القاضي عياض، **إكمال المعلم بفوائد مسلم**، تحقيق: يحيى إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، مصر، ط١، ١٩٩٨م، ج ١، ص ١٩٥.

٤٥- أبو بكر محمد بن عبد الغني بن نقطة، **التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد**، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ط١، ١٩٣٨م، ج ١، ص ١٧٠، تر ١٧٦.

السابقين، إذ نجد شخصيته ظاهرة في كتابه، مبديا آراءه، ومبدعا في دراسة بعض القضايا مما لم يسبق أن درست من قبل كما هو الحال بالنسبة لموضوع الإجازة، إذ نجده ينتقد سلوك شيوخ تساهلوا في الإجازة، فصاروا يقدمونها للأعجمي والصبي "ممن لا يفقه ما يقرأ، ويحضر السامع بغير كتاب، ثم يكتبه بعد عشرات من الشهور أو السنين من كتاب ثقة سمعه معه، ولعل الضبط يخالف في كثير منه يخالف كتاب الشيخ أو ما قرئ عليه... وعلى هذا تسامح الشيوخ في مجالس الإملاءات وتبليغ المستملين عن الشيخ لمن بعد، وتذكير السامعين بعضهم من بعض"(٤٦). وكذا عند بيان ما عليه الحال بسبتة والأندلس في تصحيح المكتوب مما يضيف معلومات جديدة للقارئ تخص منهج المغاربة والأندلسيين في ذلك(٤٧). كما نجده يستصوب طريقة في التصحيح مع بيان السبب الذي جعله يقول بذلك(٤٨) مما لا نجده في بقية كتب علوم الحديث، وينتقد سلوك من يتجرأ على التصحيح على غير هدى مما شاهده من بعضهم(٤٩)، وينص على فوائد خاصة من شيوخه لا نجدها في بقية كتب المصطلح(٥٠)، ونجد له آراء خاصة به في هذا المجال وتصويبات(٥١)، ولا يغفل عن تقديم النصائح لطلاب العلم عمن يأخذون في أكثر من موطن(٥٢)، وتفسيره سلوك المحدثين في جملة من الأمور كسبب قلة تخريج البخاري حديث مالك من طريق يحيى بن بكير، وإنما اعتمد على طريق الليثي عنه لما رمي به ابن بكير من خطرفة الأوراق عليه فلا يفطن، فيمكن أن يقع الخلل في روايته(٥٣)، وإيراده مواقف خاصة بالأندلس مما لا نجده في الكتب المشرقية(٥٤)، ثم نجده بعدما فصل بشكل بديع في موضوع الإجازة، وهي صورة من صور التحمل، يقول: "وقد تقصينا وجه الإجازة بما لم نسبق إليه، وجمعنا فيه تفاريق المجموعات والمسموعات والمشافهات والمستنبطات بحول الله وعونه"(٥٥).

٤٦- القاضي عياض، **الإلماع**، ص ١٤٢.

٤٧- المرجع السابق، ص ١٦٢.

٤٨- المرجع السابق، ص ١٦٣- ١٦٤.

٤٩- المرجع السابق، ص ١٦٧-١٦٨.

٥٠- المرجع السابق، ص ١٦٩- ١٧٠.

٥١- المرجع السابق، ص ١٧٢، و ١١٠-١١١.

٥٢- المرجع السابق، ص ٥٨-٥٩.

٥٣- المرجع السابق، ص ٧٧.

٥٤- المرجع السابق، ص ١٠٠-١٠١.

٥٥- المرجع السابق، ص ١٠٧.

والقاضي عياض في عمله هذا كان مجادلا ومفسرا وموجها للكلام، وناقضا لبعضه، ومضيفا معلومات لم يسبق إليها مما يجعل كتابه مصدرا لا غنى عنه في مصطلح الحديث.

المبحث الثالث: أثر الدراسات الحديثية السبتية في المشرق

١- التأثير عن طريق صياغة الفكرة

إن صياغة الأفكار لا تقل أهمية عن إبداعها، فإن العالم قد لا يقوم بنفسه بتحقيق فكرة، لكنه يصوغها بطريقة واضحة تدفع الآخرين إلى إنجازها بعد الاقتناع بها، فيكونون بذلك مبدعين في مجالهم، والأصل في عملهم تلكم الفكرة التي صاغها العالم الفلاني.

بناء على ذلك، فإن السبتيين لم يعدموا هذا الجانب مما كان له دور إيجابي في تطوير الدراسات الحديثية في المشرق، فنجد ابن رشيد على سبيل المثال يصوغ فكرة ممتازة، فإنه بعد طول تطواف في البلدان ودراسة متأنية **للجامع الصحيح للبخاري**، لم يجد أحدا اعتنى بمعلقاته من حيث الوصل وبيان درجتها صحة وضعفا، فكانت منه تلكم اللفتة التي التقفها ابن حجر العسقلاني وكان لها أثرها في نفسه مما جعله يعمد إلى تصنيف كتاب في هذا الباب لم يسبق إليه، وهذا يعد تأثيرا له نتائج إيجابية في الآخرين، وفي ذلك نجد ابن حجر العسقلاني يعبر عن امتنانه لابن رشيد السبتي الذي أفاده في موضوعه، ونبهه إلى ما ينبغي التصدر له في التأليف، فكان سببا في تأليفه كتاب **تغليق التعليق**، حيث قال: "... وقد نقلت من كتاب **ترجمان التراجم** للحافظ أبي عبدالله بن رشيد ما نصه بعد أن ذكر التعليق: وهل هو لاحق بحكم الصحيح أم متقاصر عنه؟ قال: وسواء كان منسوبا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى غيره، وأكثر ما وقع للبخاري من ذلك في صدور الأبواب، وهو مفتقر إلى أن يصنف فيه كتاب يخصه تسند فيه تلك المعلقات وتبين درجتها من الصحة أو الحسن أو غير ذلك من الدرجات. وما علمت أحدا تعرض لتصنيف في ذلك، وإنه لمهم، لا سيما لمن له عناية بكتاب البخاري. انتهى. وكفى بها شهادة من هذا المحقق الحافظ المدقق الرحال إلى المشرق والمغرب"(٥٦).

فلقيت الفكرة التي صاغها ابن رشيد السبتي صدرا يرحب بها من المشرق وعمل على تحقيقها. وهذا التأثير الذي حصل في ابن حجر العسقلاني يدل على أن الفكرة كانت متميزة تستحق أن تحقق على مستوى الواقع، لأنها تحقق فائدة للأمة.

٥٦- ابن حجر، **تغليق التعليق**، ج ٢، ص ٦-٧، وانظر أيضًا: مقدمة **فتح الباري**، ج ١، ص ١٩- ٢٠.

٢- **التأثير بالإضافة المعرفية**

إن المتتبع لجملة من أعمال المشارقة يجد أنهم اعتمدوا على السبتيين والمغاربة والأندلسيين عموما في نقل جملة من المعلومات من مصدرها لم يتمكنوا من الوقوف عليها مباشرة، فكانوا واسطة في ذلك، وإننا نجد النووي (ت٦٧٦هـ) يكثر النقل عن كتاب **مشارق الأنوار على صحاح الآثار** للقاضي عياض في شرحه **صحيح مسلم** مستفيدا منه، وأحيانا معقبا عليه[٥٧]. وأفاد منه ابن كثير (ت٧٧٤هـ) في كتابه **الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث**، حيث نجده ينقل من مقدمة **المشارق** ويستفيد منه[٥٨].

وهذا ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) يكثر النقل عنه موردا الفوائد التي أفادها منه[٥٩]، ومعتمدا على ما جاء فيه[٦٠]، وأحيانا منتقدا لما جاء فيه[٦١]، كما ينقل عن ابن رشيد السبتي فوائد تخص تراجم البخاري عن أبي الأصبع عيسى بن سهل[٦٢]. كما نقل عنه معلومات وردت في نسخ قديمة من **صحيح البخاري** من حيث ضبط الألفاظ[٦٣]، وكذا ما ذكره مما ورد في رواية القابسي والنسفي وعبدوس لـ: **صحيح البخاري**[٦٤]، وأكثر النقل عنه أيضًا في **ترجمان التراجم** في المناسبة بين الحديث والترجمة وكذا قصده بها[٦٥]، واستحسن قوله[٦٦]، وانتقده أحيانا أخرى[٦٧].

٥٧- أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، **شرح النووي على صحيح مسلم**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ، ج ١، ص ٢٣- ٢٤، ٤٧، ٥٥، ٥٧، ٦٤، ٧٧، ٨٢-٨٣، ٩٢-٩٣.

٥٨- ابن كثير، **الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث**، ص ١١٩.

٥٩- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، ج ١، ص ٥٢، ٩٩، ٢٦٩، ٢٩٧، ٤٠٨، ٤١٤، ٤١٥، ج ٣، ص ٥١٨، ج ٤، ص ٦٠، ج ٥، ص ٤١، ٣٣٤، ٣٤٠، ج ٦، ص ٢١١، ٣٢٢.

٦٠- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، ج ١، ص ١٥٧، ١٩٣، ٣٦٥، ٣٩٥، ٤٤٩.

٦١- المرجع السابق، ج ١، ص ٣٦٥، ٥١٠، ٥١١، ج ٦، ص ٣٢٢.

٦٢- المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٦، ٣٣١، ج ٨، ص ٣٦٥.

٦٣- المرجع السابق، ج ١٣، ص ٣٢٤.

٦٤- المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٦، ٤٠٨.

٦٥- المرجع السابق، ج ١، ص ١٣٣، ١٤٣-١٤٤، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٣، ٢٣٢، ٣٤٥، ٤٠٢، ٤٠٥، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٣٠، ٤٤٠، ٤٩٨، ٥٠٥، ٥٥٨، ٥٧٥، ٥٨٧، ج ٢، ص ٢٩، ٣١، ٤٠، ١٣٨، ١٥٢، ١٩٣، ١٩٨، ٢٠٩، ٢١٣، ٢٢٧، ٢٣٧، ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٦٧، ٢٨٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣١٠، ٣١١، ٣٢١، ٣٤٦، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٩٢، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٤٥، ٤٥٤، ٤٧٥، ٤٩٤، ٤٩٥، ٥٠١، ٥١٧، ٥٤٨، ٥٥٤، ٥٦٢، ٥٧٣، ٥٧٦، ٥٨١، ٥٨٤.

٦٦- المرجع السابق، ج ١، ص ٢٣١.

٦٧- المرجع السابق، ج ١، ص ٢١٠، ٢١٥، ٢١٧، ٢٣٩.

كما نقل عنه البدر العيني (ت٨٥٥هـ) **مجموعة من الفوائد الحديثية**[٦٨]، وكذا في موضوع مناسبة الحديث للترجمة في كثير من المواطن[٦٩].

تلكم كانت إشارات إلى أثر بعض الدراسات السبتية في بعض الأعمال المشرقية على سبيل المثال لا الحصر، تدل على أن السبتيين كان لهم وجود في الدراسات الحديثية في المشرق.

٣- التأثير في التأليف عند المشارقة

إن الناظر في طبيعة التأليف عند المشارقة، سيجد تأثرهم في جانب من ذلك بالسبتيين والأندلسيين والمغاربة عموما، كما أن هؤلاء تأثروا في جانب من مصنفاتهم بطريقة التأليف عند المشارقة، قصدنا بذلك أن كل جهة استفادت من الأخرى، إلا أننا هنا بصدد بيان جانب التأثير المغربي في التأليف المشرقي، بمعنى آخر: هل كان السبتيون عالة على المشارقة، أم أن لهم بصمات واضحة في الكتابة المشرقية؟ بالعودة إلى التأليف في **شرح صحيح مسلم**، نجد المازري صاحب كتاب **المعلم بفوائد مسلم** أول من قام بشرحه، قام فيه بذكر جملة من الفوائد المستخلصة من **صحيح مسلم**، مشيرا إلى بعض الروايات المختلفة للصحيح، مبرزا أوجه الخلاف في الرواية، مصححا أو مخطئا، وشارحا ومستنبطا أوجه الفوائد من الصحيح، ثم تلاه مباشرة القاضي عياض في كتابه **إكمال المعلم بفوائد مسلم**، وكان لصنيعهما تأثير كبير فيمن جاء بعدهما، إذ نجد من يتصدى للتأليف لا يغفل عن الكلام عن اختلاف الروايات لكتاب الصحيح، مع توجيهها، أو تصحيح رواية على حساب أخرى، ثم بيان المعاني اللغوية، والأحكام المستنبطة، مع موازنة ذلك مع ما جاء في طرق أخرى للأحاديث كما هو صنيع النووي في **شرحه صحيح مسلم** وابن حجر في **شرح صحيح البخاري**.

وقد كان لكتابي المازري والقاضي عياض أثر كبير في الشروح التي تلتهما باعتبارهما بداية التصنيف في **شرح صحيح مسلم**، فنجد العزو إليهما كثيرا، مع التأثر بالمنهج الذي سلكاه.

الخاتمة:

من خلال ما سبق، ظهر لنا أن الدراسات الحديثية بسبتة العالمة كان لها وزنها، أذكاها وجود عدد كبير من المساجد، منها ما وصفت بكونها عظيمة جدا من قبل المؤرخين، وجبل العلماء على تقديم

٦٨- بدر الدين محمود بن أحمد العيني، **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٢، ص ٥٩، ٧١، ٧٢، ج ٥، ص٢٩٧، ج ٦، ص ١٠٩، ١٥٤، ١٩٨، ج ٩، ص ٤.

٦٩- المرجع السابق، ج ٦، ص ٥٢، ١٠٠، ١٨٢، ج ٧، ص ٩٩، ١١٧، ١٣٧.

الدروس العلمية بها، وكان للدرس الحديثي نصيب لا يستهان به، إلى جانب المدارس التي أنشئت بسبتة وعرفت بأصحابها الذين قاموا ببنائها مثل الشاري رحمه الله تعالى وما عرف به أهل العلم من وقف خزاناتهم العلمية التي أفاد منها الطلاب، كما كانت بيوتهم وبيوت أهل الشرف بالمدينة مكانا لاستقبال الشيوخ وطلاب العلم.

وإذا علمنا أن سبتة تمثل منطقة عبور إلى الأندلس والمغرب والمشرق، أدركنا أنه أتيحت فرص عديدة للتلاقح العلمي بسبتة كما مر بنا. يضاف إلى ذلك أن تواصل العلماء السبتيين مع المشارقة عن طريق الرحلة لأداء مناسك الحج كان له دوره في الإفادة من عطاءاتهم العلمية، وتبادل الفوائد، إلى جانب الرسائل التي كانوا يتبادلونها فيما بينهم من أجل الاستدعاء بالإجازة وغيرها. كل ذلك فتح آفاقا جديدة أمام السبتيين للنظر في الدراسات الحديثية من زوايا متنوعة شكلوا بذلك إضافات جليلة إلى هذا المجال، شهد لهم بذلك كل منصف. فكان من جانب الإبداع في الدراسات الحديثية عند السبتيين: استمراريتهم في الكتابة في الفهارس وتطويرهم لها، واستغلال الرحلات الحجازية وسيلة للتأليف العلمي، وذكر الفوائد الحديثية وغيرها مما لا نجد مثيلا له في بقية المصنفات.

كما اهتموا بالتصنيف في ضبط نسخ المصنفات الحديثية، وأبدعوا في ذلك كما هو حال القاضي عياض في **مشارق الأنوار**، وهو عمل لم يسبق إليه. كما أسهموا في التأليف في مناسبة الأحاديث للأبواب، وكانوا فيه من الأوائل كما هو حال ابن رشيد السبتي في **ترجمان التراجم**. وطوروا طريقة الكتابة في المجال الحديثي كما نلمسه عند ابن رشيد في **السنن الأبين** الذي سلك فيه مسلك المحاكمات. ونجدهم كذلك يسهمون في تحديد منهج الرواية، ويبدعون في ذلك بما قدموه من إضافات كبيرة كما هو حال القاضي عياض في **الإلماع**.

كل هذا العطاء جعل المشارقة يهتمون بأعمال السبتيين التي تميزوا بها إثراء للدراسات الحديثية في المشرق، فنجدهم يستفيدون منهم على مستوى صياغة الأفكار، والفوائد المتداولة بين علماء سبتة، كما تأثروا بطريقة التأليف عند السبتيين كما هو واضح في مثل **إكمال المعلم** للقاضي عياض، والمنهج الذي سلكه فيه إلى جانب المازري في **المعلم** عند تأليفهم كتب الشروح سواء عند النووي أو العيني أو ابن حجر أو غيرهم ممن اعترفوا بعطاء السبتيين المتميز.

وبعد، فهذا ما هو إلا غيض من فيض، قصدنا به تقديم صورة عن الدراسات الحديثية بسبتة السليبة، لعلها تكون مناسبة للمزيد من البحوث في هذا المجال بإذن الله تعالى.

Originality of *Ḥadīth* Studies at Sabtah and their Impact in East

This paper makes a survey of studies in the field of *ḥadīth* undertaken by the renowned scholars of Sabtah. Since this Moroccan city was situated between the eastern Muslim lands and Andalus, it flourished as a vibrant centre of Islamic culture connected with both East and West. Islamic scholarship developing in this cultural metropolis richly contributed to all significant fields of Islamic knowledge particularly *ḥadīth*. The most outstanding among the scholars of this city Qāḍhī ʻAyaḍh was the most impactfull on the eastern Muslim lands. The latter along with a number of other scholars from Sabtah have displayed many original traits in their works on *ḥadīth*. The paper takes a notice of these original *ḥadīth* works and explores their impact in eastern Muslim lands.

****